

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة الطبعة الأولى

ترددت كثيراً عندما بدأت أفكر في اختيار موضوع هذا البحث ، وكنت أظن أن اختياره هين لين ، لكن الواقع أثبت أن أصعب الأشياء لا تكون إلا أسهلها ، ورحت أطوف في هيكل الأدب ، كما كان يطوف فولتير في معبد الذوق . لكنه كان يحاول من خلال ذلك نقد أدباء عصره وغيرهم ، أما أنا فكنت أفتش بين آثار القدماء التي ما زالت قابضة تنتظر البعث والإحياء كي عسوب على ومعجز أحمد ، وتطالعني بين حين وآخر أطيافُ بعض الشعراء القدماء وأدباؤهم كأسامة بن منقذ وجمال الدين بن نباتة ، وكأني سمعت هذا الأخير ينشطني ، وأنا أجتاز هذا الهيكل ، قوله :

أسقى لشعري بارعٍ نَظْمَتُهُ      تحتاجُ بهجته ليرفدِ بارعٍ  
دُرٌّ يَتِيْمٌ قد تَضَوَّعَ نَشْرُهُ      يا مَنْ يرقُّ على اليتيم الضائعِ

أجمع الأقدمون على أنه كان كثير المحاسن ، وكان مع ما اشتمل عليه منها قليل الحظ في حياته ، وقد حفزني هذا الأمر على دراسته وإعطائه حقه بعد أن استهواني شعره .

تأثرت بهذا الشاعر ، وبقي هذا الصوت يتردد صدهاء في حنايا هذا الهيكل ، يتوسل إلى أن أرق وأحنو على اليتيم الضائع ، ولم أكد أنتهي من تطوافي ، وكادت أخرج من هذا الهيكل حتى وجدته قد صممت على اختيار ابن نباتة ليكون موضوع هذا البحث .

ومادمت في مستهل هذا الحديث ، فلا أقل من أن أزجي شكرى العميق للأستاذين الفاضلين الدكتور محمد كامل حسين والدكتور شوقي ضيف اللذين أوجيا إلى دخول هذا الهيكل الأدبي القدسي ، وأفسحا لي مجال التأمل والعمل ،

فرعياني بعطفهما ، وشملاني بحبهما ، فلهما منى أفضل تحية ما سجدت حمامة ورقاء على فننها ، وهي تردد في الوادى الظليل صدى النواير الخالدة .

ومادمت قد اخترت هذا الموضوع ، فن الواجب على أن أبين سبب اختياره وتفضيله عما سواه من المواضيع وهي كثيرة ، ولا أعدو الحقيقة إن قلت : إن هذا الموضوع ذو شأن كبير في هذا العصر ، ذلك لأن الشاعر يمثل الوحدة الفكرية القائمة بين البلاد العربية بعامة ومصر والشام بخاصة خير تمثيل ، وسرى أن أهميته في عصره أكثر من أهميته في أى عصر من العصور ، فلم يكن شاعر مصر وحدها ، ولا الشام التى قضى فيها معظم حياته ، ولا البلاد العربية قاطبة ، وإنما تظهر أهميته أنه شاعر المشرق العربى كله من أقصاه إلى أدناه ، كما أجمع على ذلك القدماء . ولم نعرف بين شعرائنا وأدبائنا الأقدمين منهم والمحدثين من حمل هذا اللقب الذى نعت به في هذه الإمبراطورية العربية الكبرى التى أنشأها سلاطين الأيوبيين وماليكهم من بعدهم . يعنى قولى هذا أن سبب الاختيار مزدوج ، ولعلنى أفى هذا القول حقه إن فصلت هذا السبب وتحدثت عن عوامله حديثاً ضافياً .

أما الوحدة السياسية فكانت قائمة بين البلاد العربية ، وكان هذا الأديب الكبير أحد رسلها ، وما أكثر ما تحدث عنها في شعره ، فذكر مصر والشام ، وتحدث عن النيل والأهرام ، وتشوق للسبك والمقياس ، كما تحدث عن العاصى ونواير وبردى وشفافه .

ولد الشاعر في أرض الكنانة ومات فيها ، لكنه عاش جلّ حياته في أرض الشام ، وأجمل أيامه قضاه في رعاية الملك المؤيد أبى الفداء الذى أنساه أهله وموطنه . تلك هى قبسات من حياة هذا الأديب ، لكنها في الواقع حياة الوحدة بين قطرين ، ومن منا لم يستمع إلى أنشودة مصرية عصرية تقول : إن هذا العربى واقف فوق ذرا الأهرام ، وقد امتدت أمامه بسايتن الشام . هذه الأغنية التى نسمعها الآن على كل شفة ولسان ، إنما هى في الحقيقة صورة من الصور التى رسمها الأديب الكبير ، وكان بحق ذلك الإنسان الذى صور له خياله هذه الصورة الساحرة التى نردها الآن . ولو رجعنا معه قليلا إلى الوراء لمعرفة جده الأول ، وهو من مينا فارقين شاملى بلاد الشام ، لوجدنا أنه قد أثبت

حتى عن طريق جده قيام هذه الوحدة منذ القديم ، قبل عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك .

أضيف إلى ما ذكرت من عوامل اختيار هذا الموضوع عاملاً آخر قد يكون فيه بعض الأنانية ، وأعترف بذلك لأن الصديق فوق أهواء النفوس . لقد عاش هذا الأديب الكبير أمداً مديداً في هذه المملكة الأيوبية ، وانصرف إلى مليكتها المؤيد أبى الفداء فأغدى عليه وقلب حياته نعيماً وصرفه إلى التأليف بعد أن اختص به . ومثل من حقه أن يبحث عن أديب عاش في مدينته أجمل أيام حياته وأطولها ، إننى أشعر في كل مكان أزوره في ضفاف وادى حماة الرجب أن أقدم ابن نباتة قد وطنته ، فأنادى أن اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى .

وما جلست على ضفاف هذا الوادى ، واستمعت لصوت نواغيره النائحة الذكلى إلا ذكرت ابن نباتة ، وما أكثر ما تحدث عنها ، وما أكثر ما رقت لحالها وهى تدور وتدور ، والماء من حولها يجرى والطيور تسجع وهى مطوقة كما سجع الأديب في سجعه المطوق . لقد أعطته حماة من طبيعتها وسحرها الشيء الكثير ، فوقتها حقها ، وتحدثت عنها الحديث المستفيض ، ويعلم الله أننى ما زرت قبر أبى الفداء إلا تمثلت الشاعر واقفاً ينشده مؤيدياته أوزائراً قبره يرثى عهده ، ويندب أيامه ولياليه . فعلى الشاعر العظيم ومليكه العالم الرحمة والغفران ، وندعو الله أن تهمل على قبريهما سحائب السقيا وأن تعم وادى مصر والشام ، ففى ثرى الكنانة دفن ابن نباتة قرب النيل والأهرام وعلى ضفاف العاصى دفن مليكه الحبيب . ذلك قولى فى فاتحة البحث الذى عملت من أجله كثيراً ، وقد اعترضتنى صعوبات جمّة استطعت تذليلها ، وسأعمل ما حييت لأكون الإنسان الذى تدب نفسه وقصر جهده على خدمة أدب هذا العصر بكل ما أوتيته من قوة وصبر بعد أن توضحت أمامى الحججة وانفسح السبيل .

وبعد : فهذا كتابى بين الناس ، فإن وفقت فذلك حسبى وإلا فما قصدت إلا العمل وحده ، والله شاهد على ما أقول ، وهو ولى الأمر والتدبير .

القاهرة - الجزيرة

٢١ نيسان « أبريل » سنة ١٩٦٠

عمر موسى باشا



## مقدمة الطبعة الثانية

عهدي بالشاعر أمير شعراء المشرق ، جمال الدين محمد بن نباتة المصري قديم ، بعيد ، وإلني إياه يرجع إلى أكثر من عشر سنوات خلت ، يوم قدمت عنه كتاباً في مكتبة الدراسات الأدبية ، ينشر للناس قصته ، ويعيد لهم ذكره وخبره .

إنّ ما قمت به في الأمس البعيد لم يكن إلا باكورة أبحاثي عن أمير شعراء عصره . ولقد أرشدني أستاذي العلامة الدكتور شوقي ضيف إلى ظهور الطابع المصريّ المميز في شعره ، وطلب إلىّ أن أستدرك ذلك في المستقبل ، ولكن كثرة أعمالي في التدريس الجامعي حالت دون القيام بذلك ، ومضى وقت طويل ، وهذه الفكرة تراودني حيناً بعد حين ، ويتعذر عليّ إنجازها ، حتى كان صيف هذا العام ، فإذا بي أعود إلى الشاعر عودة جديدة ، وإذا بدويّانه يدعوني إلى مطالعته من جديد ؛ وعجيب أمر الإنسان في مثل هذه الحال ، فلقد ساورتني الحيرة الشديدة ! إذ وجدت في هذه القراءة الجديدة ما لم أجدّه من قبل ، وألفيت نفسي مرتبطاً برابط أوثق مما كان بيننا ، فأقبلت عليه لإقبال الصديق القديم ، وعكفت على شعره ، فوجدتني أطرب من جديد ، ولكن طرّبي لشعره غير ما كنت أعهدّه فيه .

أما الذي استرعى انتباهي حقّاً ، فهو هذا الطابع المصريّ في شعره ، وكنت أتوقع حين شرعت في العمل والبحث ألا يتجاوز الفصل الواحد ، وإذا بهذا الفصل يتجاوز حدوده .

وقفت متعجباً أمام هذا الإيمان العميق بحبّ البلدان والأوطان ، وقد است هذه العبقرية النباتية التي قدّمت لمصر أجمل شعر في التشويق والحنين إليها ، ولم يكن الشاعر ليقصر كسائر الشعراء على مقطعات وقصائد محدودة ، وإنما نجد شعره كله في مختلف المعاني والأغراض يتميز بهذا الطابع الخاص

الذى يرفعه إلى قمة المجد من جديد كما كان فى الماضى البعيد .

ولو أجرينا مقارنة بينه وبين الشعراء المصريين القدماء والمحدثين ، وقومنا كل شاعر بمقدار ما تحدث فيه عن وطنه مصر ، لرأينا أن كفته ترجح عليهم جميعاً ، إذ إنه كان مطبوعاً بطابع مصرى محض على الرغم من أنه قضى قريباً من نصف القرن من الزمن بعيداً عن أرض الوطن .

لم أتطرق فى هذا الحكم ، ولم أقرّره مسبقاً ، ولم أقله اعتباطاً ، وإنما هدتنى إليه الدراسة الموضوعية القائمة على بحث دقيق ، استقصيت معظم ما يتعلق بهذا الطابع ، وقدّمت خلال ذلك من الشواهد والبيّنات ما يجعل رأيي صحيحاً بعيداً عن الغلو والمبالغة فى تقرير الأحكام النقدية .

إننى أضع هذا الكتاب فى طبعته الثانية بين أيدي العاكفين على الدراسات الأدبية ، ليطلعوا على هذا الطابع المصرى الذى يميز أدب أمير شعراء المشرق ابن نبانة المصرى .

ولعلنى أكون قد أحسنت صنعاً فى المناسبة التى قدّمت خلالها هذا الكتاب ، وهى مهرجان القاهرة الألى فى هذا العام ، وهكذا أكون قد أشركت الشاعر نفسه فى الاحتفال الكبير ، وهو فى الواقع أحقّ من يسهم فيه بشعره ، ولقد أسهم فعلاً قبل مئات السنين بالتحدث عن مصر والقاهرة ، ولم يتحدث أحد قبله عنهما مثله ، وشعره خير دليل على ما نقول .

تحدث عن أرض الكنانة ، فوصف لنا معالمها ومشاهدها وأوابدها ، وهو متغرب بعيد عنها ، فلم يترك منها شيئاً مشهوراً دون وصف أو إشارة أو رمز إليه .

لن نستبق القول والحكم فى هذا التقديم التقليدى ، وإنما أترك الحكم الذاتى بعد الاطلاع على هذا الكتاب ، فسوف نجد أن الشاعر كان أميناً كل الأمانة على حب الوطن وتقليده والتضحية فى سبيله .

وبعد ، فليكن الشاعر المصرى المولود فى زقاق القناديل بالقاهرة ، والمقبور فى خانقاه سعيد السعداء فيها ، أول من يحتفل بذكرى القاهرة

الألنّى ، وهو أحق من يحتفل بها ، فله منة في عنقها أبداً ، لأنه خلدها قبل  
مئات السنين ، وحرى بها أن تحتفى به في عيدها الألنّى .

ومن حق الشاعر على دار المعارف أن يكون هذا الكتاب عن الشاعر المصري  
رمز احتفالها المنتظر في عيد القاهرة الجبارة التي قهرت له الأعداء في الماضي ،  
وستقهرهم بإذن الله في المستقبل ، والله وحده من وراء القصد .

دمشق - المهاجرين .

١ كانون الأول « يناير » سنة ١٩٦٩ .

عمر موسى باشا